﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥) ﴾

ونقف بالتأمل الآن عند قوله الحق : « الله لا إله إلا هو » . إن كلمة « الله » هي عَلَمٌ على واجب الوجود . وعندما نقول : « الله » فإن الذهن ينصرف إلى الذات الواجبة الوجود .

ما معنى « واجبة الوجود » ؟ إن الوجود قسمان : قسم واجب ، وقسم ممكن . والقسم الواجب هو الضرورى الذي يجب أن يكون موجودا ، والحق سبحانه وتعالى حين أعلمنا باسمه « الله » أعطانا فكرة على أن كلمة « الله » هذه يتحدى بها - سبحانه - أن يُسمى بها سواه . ولو كنا جميعا مؤمنين لكان احترامنا لهذا التحدى نابعا من الإيمان . ولكنْ هناك كافرون بالله ومتمردون وملحدون يقولون : « الله خرافة » ، ومع ذلك هل يجرؤ واحد من هؤلاء أن يسمى نفسه « الله » ؟

لم يفعل أحد هذا ؛ لأن الله تحدى بذلك ، فلم يجرؤ واحد أن يدخل فى هذه التجربة . وعدم جرأة الكفار والملاحدة فى أن يدخلوا فى هذه التجربة دليل على أن كفرهم غير وطيد فى نفوسهم ، فلو كان كفرهم صحيحا لقالوا : سنسمى ونرى ما يحدث ، ولكن هذا لم يحدث .

إذن « الله » عَلَم واجب الوجود المتصف بكل صفات الكمال . وبعد ذلك جاء

بالقضية الأساسية وهي قوله تعالى : « لا إله إلا هو » وهنا نجد النفى ونجد الإثبات ، النفى فى « لا إله » ، والإثبات فى « إلا هو » . والنفى تخلية والإثبات تحلية . خلى سبحانه نفسه من وجود الشريك له ثم أثبت لنا وحدانيته . و« لا إله إلا هو » أى لا معبود بحق إلا الله . ونعرف أن بعضا من البشر فى فترات الغفلة قد عبدوا أصناما وعبدوا الكواكب . ولكن هل كانت آلهة بحق أم بباطل ؟ لقد كانت آلهة بباطل . ودليل صدق هذه القضية التى هى « لا إله إلا الله » ، أى لا معبود إلا الله أن أحدا من تلك الآلهة لم يعترض على صدق هذه القضية . إذن فهذا الكلام هو حق وصدق .

وإن ادعى أحد غير ذلك ، نقول له : إن الله قد أخبرنا أنه لا معبود بحق غيره ؛ لأنه هو الذى خلق وهو الذى رزق ، وقال: أنا الذى خلقت . إن كان هذا الكلام صحيحا فهو صادق فيه ، فلا نعبد إلا هو . وإن كان هذا الكلام غير صحيح ، وأن أحدا غيره هو الذى خلق هذا الكون فأين هذا الأحد الذى خلق ، ثم ترك من لم يخلق ليأخذ الكون منه ويقول : « أنا الذى خلق الكون » ؟ إنه أمر من اثنين ، الأمر الأول : هو أنه ليس هناك إله غيره . فالقضية ـ إذن ـ منتهية . والأمر الآخر : هو أنه لو كان هناك آلهة أخرى ، وبعد ذلك جاء واحد وقال : « أنا الإله وليس هناك إله إلا أنا » . فأين هذه الآلهة الأخرى ؟ ألم تعلم بهذه الحكاية ؟

إن كانوا لم يعلموا بها ، فهم لا يصلحون أن يكونوا آلهة ، وإن كانوا قد علموا فلماذا لم يقولوا : لا . نحن الآلهة ، وهذا الكلام كذب ؟ وكما بعث الله رسلا بمعجزات كان عليهم أن يبعثوا رسولا بمعجزات . فصاحب الدعوة إذا ادّعاها ولم يوجد معارض له ، تثبت الدعوى إلى أن يوجد مُنازع .

إذن كلمة « لا إله إلا الله » معها دليل الصدق ؛ لأنه إما أن يكون هذا الكلام حقا وصدقا فتنتهى المسألة ، وإن لم يكن حقا فأين الإله الذى خلق والذى يجب أن يُعبد بعد أن سمع من جاء ليأخذ منه هذه القضية ؟ وبعد ذلك لا نسمع له حسا ولا حركة ، ولا يتكلم ، ولا نعلم عنه شيئا ، فما هو شأنه ؟ إما أنه لم يعلم فلا يصلح أن يكون إلها ؛ لأنه لو كان قد علم ولم يرد فليست له قوة . ولذلك ربنا

سبحانه يأتى بهذه القضية من ناحية أخرى فيقول :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

فلو كان عند تلك الآلهة المزعومة مظاهر قوة لذهبوا إلى الله سبحانه وتعالى وأنكروا ألوهيته ، ولو كان هناك إله غير الله لحدثت معركة بين الآلهة ، ولكن هذا لم يحدث . فالكلمة « لا إله إلا الله » صدق فى ذاتها حتى عند من ينكرها ، والدليل فيها هو عدم وجود المنازع لهذه الدعوى ؛ لأنه إن لم يوجد منازع فقد ثبت أنه سبحانه لا إله إلا الله . وإن وجد المنازع نقول : أين هو؟

وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - هب أننا فى اجتماع ، وبعد ذلك وجدنا حافظة نقود ، فعرضناها على الموجودين ، فلم نجد لها صاحبا ، ثم جاء واحد كان معنا وخرج ، وقال : يا قوم بينما كنت أجلس معكم ضاعت حافظة نقودى . ولما لم يدعها واحد منا لنفسه فهى إذن حافظته هو .

إذن « لا إله إلا الله » هى قضية تمتلىء بالصدق والحق ، والله هو المعبود الذى يُتوَجّه إليه بالعبادة ، والعبادة هى الطاعة . فمعنى عابد أى طائع ، وكل طاعة تقتضى أمرا وتقتضى نهيا ، ومادامت العبادة تقتضى أمرا وتقتضى نهيا ، فلا بد أن يكوّن المأمور والمنهى صالحا أن يفعل وصالحا ألاّ يفعل . فعندما نقول له : افعل كذا كمنهج إيمان ، فهو صالح لئلا يفعل . وعندما نقول له : لا تفعل فهو صالح لأن يفعل ، وإلا لو لم يكن صالحا ألا يفعل أيقول له « افعل » ؟ لا ، لا يقول له ذلك . ولو كان صالحا ألا يفعل أيقول له « لاتفعل » ؟ إن ذلك غير ممكن .

إذن لا بد أن يكون صالحا لهذه وتلك وإلا لكان الأمر والنهى عبثا ولا طائل من ورائهما . لذلك عندما أرادوا أن يقصروا الإسلام فى العبادات الطقسية التى هى شهادة لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، والصلاة ، والصوم ، والزكاة ،

والحج ، قالوا : هل هذا هو كل الإسلام ، وقالوا : إنه دين يعتمد على المظاهر فقط ، قلنا لهم : لا ، إن الإسلام هو كل حركة فى الحياة تناسب خلافة الإنسان فى الأرض ؛ لأن الله يقول فى كتابه الكريم :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

(من الآية ٦١ من سورة هود)

« واستعمركم فيها » أى طلب منكم أن تعمروها ، فكل حركة فى الحياة تؤدى إلى عمار الأرض فهى من العبادة ، فلا تأخذ العبادة على أنها صوم وصلاة فقط ؛ لأن الصوم والصلاة وغيرهما هى الأركان التى ستقوم عليها حركة الحياة التى سيُبنى عليها الإسلام ، فلو جعلت الإسلام هو هذه الأركان فقط لجعلت الإسلام أساسا بدون مبنى ، فهذه هى الأركان التى يُبنى عليها الإسلام ، فإذن الإسلام هو كل ما يناسب خلافة الإنسان فى الأرض يبيّن ذلك ويؤكده قول الله تعالى :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

(من الآية ٦١ من سورة هود)

ويخرج إلينا أناس يقولون : نحن ليس لنا إلا أن نعبد ولا نعمل . ونقول لأى منهم : كم تأخذ الصلاة منك فى اليوم ؟ ساعة مثلا . والزكاة كم تأخذ منك فى العام يوما واحدا فى العام ؟ والصوم كم يأخذ منك من وقت ؟ نهار أيام شهر واحد . وفريضة الحج أتأخذ منك أكثر من رحلة واحدة فى عمرك ؟ فبالله عليك ماذا تفعل فى الباقى من عمرك من بعد ذلك وهو كثير ؟ إنك لا تأخذ أكثر من ساعة فى اليوم للصلاة ، ولا تأخذ أكثر من يوم فى السنة لإخراج الزكاة،وتقضى شهرا فى السنة تصوم نهاره . وتحج مرة واحدة فى عمرك ، فماذا تفعل فى بقية الزمان ، ستأكل وتلبس ، ستطلب رغيف الخبز للطعام فمن الذى سيصنعه لك ؟ إن هذا الرغيف يمر بمراحل حتى يصير لقمة تأكلها . ويحتاج إلى أكثر من علم وأكثر من حركة وأكثر من طاقة .

إن المحل الذى يبيعه فقط ولا يخبزه يحتاج إلى واجهة من زجاج أو غيره ، ولا بد أن يعمل فيه من يذهب بعربته إلى المخبز ليحمل الخبز ، وينقله إلى المحل ويبيعه ،

وإذا نظرت إلى الفرن فسوف تجد مراحل عدة من تسليم وتسلم للدقيق ، ثم إلى العجين ، وإلى النار التى توقد بالمازوت ، ويقوم بذلك عمال يحتاجون لمن يخطط لهم ، وقبل ذلك كان الدقيق مجرد حبوب ، وتم طحنها لتصير دقيقا ، وهناك مهندسون يديرون الماكينات التى تطحن ، ويعملون على صيانتها ، وبعد ذلك الأرض التى نبت فيها القمح وكيف تم حرثها ، وتهيئتها للزراعة ، وريها ، وتسميدها ، وزرعها ، وحصدها ، وكيف دُرِسَ القشر والسنابل ، وكيف تتم تذريته من بعد ذلك ، لفصل الحبوب عن التبن ، وتعبئة الحبوب ، إلى غير ذلك ؟

انظر كم من الجهد أخذ رغيف الخبز الذى تأكله ، وكم من الطاقات وكم رجال للعمل ، فكيف تستسيغ لنفسك أن يصنعوه لك ، وأنت فقط جالس لتصلى وتصوم ؟ لا ، إياك أن تأخذ عمل غيرك دون جهد منك .

مثال آخر ، أنت تلبس جلبابا ، كم أخذ هذا الجلباب من غزل ونسج وخيط ؟ إذن فلا تقعد ، وتنتفع بحركة المتحرك فى الحياة ، وتقول:أنا مخلوق للعبادة فقط ، فليست هذه هى العبادة ، ولكن العبادة هى أن تطيع الله فى كل ما أمر ، وأن تنتهى عن كل ما نهى فى إطار قوله تعالى : « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » إن كل عمل يعتبر عبادة ، وإلا ستكون « تنبلا » فى الوجود . والإيمان الحق يقتضى منك أن تنتفع بعملك ولا تعتمد على عمل غيرك .

إن الحق سبحانه وتعالى قد استخلفنا فى الأرض من أجل أن نعمرها . ومن حسن العبادة أن نتقن كل عمل وبذلك لا نقيم أركان الإسلام فقط ، ولكن نقيم الأركان والبنيان معا . ونكون قد أدينا مسئولية الإيمان ، وطابق كل فعل من أفعالنا قولنا: « لا إله إلا الله » .

ولقد عرفنا أن كلمة « الله » هى علَم على واجب الوجود ، وهى الاسم الذى اختاره الله لنفسه وأعلمنا به ، ولله أسماء كثيرة كما روى فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأل الله بكل اسم هو له أنزله فى كتابه أو علمه أحدًا من خلقه - أى خصّه به - أو استأثر به فى علم الغيب عنده ، فلا تظنن أن أسماء الله هى

كلها هذه الأسماء التي نعرفها ، ولكن هذه الأسماء هي التي أذن الله سبحانه وتعالى بأن نعلمها .

ومن الجائز ، أو من لفظ الحديث نعلم أن الله قد يُعلّم بعضا من خلقه أسماء له ، ويستأثر لنفسه بأسماء سنعرفها يوم القيامة حين نلقاه ، وحين نتكلم عن الأسماء الأخرى نجد أنها ملحوظ فيها الصفة ، ولكنها صارت أسماء لأنها الصفة الغالبة ، فإذا قيل: « قادر » نجد أننا نستخدم هذه الكلمة لوصف واحد من البشر ، ولكن « القادر » إذا أطلق انصرف إلى القادر الأعلى وهو الله . وكذلك « السميع » ، و« البصير » . و« العليم » .

إننا نجد أن بعضا من أسماء الله سبحانه وتعالى له مقابل ، ومن أسماء الله الحسنى ما لا تجد له مقابلا . فإذا قيل « المحيى » تجد « المميت » ، و« المعز » تجد « المذل » ، لأنها صفة يظهر أثرها في الغير ، فهو مميت لغيره ، ومعزّ لغيره ، ومذل لغيره ، لكن الصفة إن لم يوجد لها مقابل نسميها صفة ذات ، فهو « حي » ولا نأتي بالمقابل إنما « مُحيى » نأتي بالمقابل وهو « المميت » ، فهذه اسمها صفة فعل . فصفات الفعل يتصف بها وبمقابلها لأنها في الغير . لكن صفة الذات لا يتصف إلا بها .

وحينما قال الحق : « الله » فهو سبحانه يريد أن يعطينا بعض تجليات الله في أسمائه ، فقال : « الله لا إله إلا هو » ليحقق لنا صفة التوحيد ، ويجب أن نعلم أن « إلا » هنا ليست أداة استثناء ، لأنها لو كانت أداة استثناء فكأنك تنفي أن توجد آلهة ويكون الله من ضمن هذه الآلهة التي نفيتها وذلك غير صحيح. وإنما المراد أنه لا آلهة أبداً غير الله فهو واحد لا شريك له ، وأنه لا معبود بحق إلا هو فكلمة « إلاّ » ليست للاستثناء وإنما هي بمعنى غير ، أي لا إله غير الله .

وقد عرفنا أن هذه القضية معها دليلها ، وإلا فلو كان هناك إله آخر لقال لنا: إنه موجود . لكن لا إله إلا هو سبحانه أبلغنا « الله لا إله إلا هو » . وأعجبني ما قاله الدكتور عبدالوهاب عزام - رحمة الله عليه - وكان متأثرا بالشاعر الباكستاني « إقبال » ، كان للشاعر إقبال شيء اسمه « المثاني » ، أي أن يقول بيتين من الشعر في

معنى ، وبيتين من الشعر فى معنى ، وكان يغلب على شعر إقبال الفلسفة الإسلامية والفكر الإسلامى ، وقد تأثر الدكتور عبدالوهاب عزام بشعر إقبال فجعل له مثانى أيضا يناظر فيها « إقبال » ، فيقول :

إنما التوحيد إيجاب وسلب وفيهما للنفس عزم ومضاء

وقوله : « إنما التوحيد إيجاب وسلب » هو قول متأثر بالقضية الكهربية . فيقول : إنما التوحيد إيجاب وسلب فيهما للنفس عزم ومضاء . فأنت عندما تقول : « لا إله » ، فـ« لا » للنفى ، وعندما تكمل قولك: « إلا الله » فـ « إلا » للإثبات ، ويكمل الدكتور عزام قوله : لا وإلاّ قوة قاهرة . فهما فى القلب قطبا الكهرباء كأن الكهرباء تأتى بأنك تسلب وتوجب . فالإيجاب فى « إلا » والسلب فى « لا » . ومادام فيه إيجاب وسلب ، إذن ففيه شرارة كهرباء .

« الله لا إله إلا هو الحىّ القيوم » ، و« الحىّ » هو أول صفة يجب أن تكون لذلك الإله ، لأن القدرة بعد الحياة ، والعلم بعد الحياة . فكل صفة لابد أن تأتى بعدها فى الذكر وإلا فليست صفة من صفات الله أسبق من صفة ولا متقدمة عليها فكلها قديمة لا أول لها ، فلو كان عدماً فكيف تأتى الصفات على العدم ؟ ، وكلمة « حىّ » عندما نسمعها نقول : ما هو الحىّ ؟ . إن الفلاسفة قد احتاروا فى تفسيرها . فمنهم من قال : الحىّ هو الذى يكون على صفة تجعله مُدْرِكاً إن وُجِدَ ما يُدْرَكْ .

كأن الفيلسوف الذى قال ذلك : يعنى بالحياة حياتنا نحن ، وما دوننا كأنه ليس فيه إدراك . ونقول لصاحب هذا الرأى : لا ، إن أردت الحياة بالمعنى الواسع الدقيق فلا بد أن تقول : الحياة هى أن يكون الشىء على الصفة التى تبقى صلاحيته لمهمته ، هذا هو ما يجب أن يكون عليه التعريف ، فـ « الحىّ » : هو الذى يكون على صفة تُبقى له صلاحيته لمهمته ، مثال ذلك النبات ، مادمت تجده ينمو ، إذن ففيه حياة تُبقى له صلاحية مهمته . فلو قُطِعَ لانتهت الصلاحية . ومثل الإنسان عندما يموت تنتهى صلاحيته لمهمته ، والعناصر الجامدة عندما تأتى مع بعضها تتفاعل ، هذا التفاعل فرع وجود الحياة ، لكنها حياة مناسبة لها وليست مثل حياتنا .

أنت مثلاً ترى « الزلط » الناعم الأملس ، تجده على مقدار واحد ؟ لا ، إن أشكاله مختلفة ، وهذا دليل على أن هناك مراحل للحجر الواحد منها ، ولو استمرت تلك الأحجار فى بيئتها الطبيعية فلاشك أن هذه الكبيرة تتفتت يوماً وتصير صغيرة ثم تكبر مرة أخرى ، لكن الإنسان حين يستخدم هذه الحجارة ليضعها على سبيل المثال بين القضبان التى تسير عليها القطارات فهذه الأحجار تكون قد خرجت من بيئتها . ومن حكمة الله أنه لا يوجد شيء تنتهى جدواه أبداً ، بل هو سبحانه يهيء لكل شيء مهمة أخرى .

إذن فكل كائن يكون على صفة تُبقى له صلاحيته لمهمة ، وتكون له حياة مناسبة لتلك المهمة . نحن لا نأتى بهذاالكلام من عندنا ، ولكننا نأتى بهذا الكلام لأننا نقرأ القرآن بإمعان وتدبر ، ونقول : ماذا يقابل الحياة فى القرآن ؟ إنه الهلاك بدليل أن الله قال :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

إذن فالحياة مقابلة للهلاك . و« الحيّ » غير هالك . والهالك لا يكون حياً ، ويقول تعالى فى الآخرة :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

ومعنى ذلك أن كل الأجناس من أعلاها إلى أدناها ، سواء الإنسان ، أو الملائكة ، أو الحيوان أو النبات ، كلها ستكون هالكة ، ومادام كل شيء سيهلك يوم القيامة فكأنه لم يكن هالكاً قبل ذلك ، وله حياة مناسبة له . أليست الحجارة شيئاً ، وستدخل فى الهلاك يوم القيامة ؟ . إذن فهى قبل ذلك غير هالكة . لكننا نحن البشر لا نفطن إلى ذلك ونفهم الحياة فقط على أنها الحس والحركة الظاهرة . مع أن العلماء قد أثبتوا أنه حتى الذرة فيها دوران ، ولها حياة . وأنت عندما تنظر بالمجهر على ورقة من النبات ، وترى ما بها من خضر وخلايا ، وتشاهد العمليات التى تحدث بها ، وتقول : هذه حياة أرقى من حياتنا ، وأدق منها .

إذن فكل شيء له حياة ، وإياك أن تظن أنك أنت الذى تهلكها ، فعندما تأتى بحجر وتدقه أو تضعه فى الفرن لتصنع الجير ؛ إياك أن تقول: إنك أذهبت من الأحجار الحياة المناسبة لها ، أنت فقط قد حولت مهمتها من حجر صلب ، وصارت لها مهمة أخرى ، فالمسائل تتسلسل إلى أن يصير لكل شيء فى الوجود حياة تناسب المهمة التى يصلح لها .

وانظر إلى مهمة الحق ، ما شكلها ؟ إنها الحياة العليا ، وهو الحى الأعلى وحى لا تُسلب منه الحياة ، لأن أحدا لم يعطه الحياة ، بل حياته سبحانه ذاتية ، فهذا هو الحى على إطلاقه .

إذن فالحى على إطلاقه هو الله والحق سبحانه وتعالى قال : « الله لا إله إلا هو الحىّ » وأثر صفة هذه موجود فى كل الصفات الأخرى فقال : « القيوم » . والقيوم هو صفة مبالغة فى قائم . ومثلها قولنا : « الله غفور » لكن ألا يوجد غافر ؟ يوجد غافر ، لكن « غفور » هى صفة مبالغة .

وقد يقول قائل : هل صفات الله فيها صفة قوية وأخرى ضعيفة ؟ . نقول : لا ، فصفات الله لا يصح أن توصف بالضعف أو بالقوة ، صفات الله نظام واحد . وحتى نفهم ذلك فلنضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - نحن نقول : كلنا نأكل كى نستبقى حياتنا ، فكل واحد منا « آكل » ، لكن عندما نقول : فلان أكول ، فمعنى ذلك أنه أخذ صفة الأكل التى كلنا شركة فيها وزاد فيها فنقول عليه: « أكّال » أو « أكول » .

من أى ناحية تأتى هذه الزيادة ؟ قد تأتى الزيادة من أنك تأكل فى العادة رغيفا ، وهو يأكل رغيفين أو ثلاثة ، إذن فالحدث له فى الأكل أثر كبير ، فنقول عليه : أكول . وقد يأكل معك رغيفا فى الوجبة الواحدة ، لكنه يأكل خمس وجبات بدلا من ثلاث وجبات ؛ فيكون أيضا أكولا ، إذن فـ « أكول » إما مبالغة فى الحدث نفسه وإما بتكرار الحدث .

ونحن ننظر إلى صفات الله ونقول: إنها لا تحتمل القوة والضعف فى ذات الحدث ،

إنما فى تكررها بالنسبة للمخلوقين جميعاً ، فالله غافر لهذا ، وغافر لذاك ، وغافر لكل عاص يتوب ، إذن فالحدث يتكرر ، فيكون « غفوراً » و« غفارا » . وهذا ما يحل لنا الإشكال فى كثير من الأمور ، فعندما يقول سبحانه :

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة فصلت)

فنحن هنا نجد قضية لغوية تقول : إنك إذا جئت بصيغة المبالغة ، وأثبتها ، تكون الصيغة الأخرى الأقل منها ثابتة بالضرورة ، مثال ذلك عندما نقول : فلان « علاّم » أو « عالم » ، فمادمت أثبت له الصفة القوية ؛ تكون الصفة الضعيفة موجودة ، لكن إذا نفيت الصفة المبالغ فيها قد تكون الصفة الأخرى موجودة ، فهو ليس « علامة » لكنه قد يكون « علاماً » أو « عالما » ، فإذا قلت : فلان « علامة » فقد أثبت له الأدنى أيضاً ، فيكون « علاّما » و« عالما » . لكن إذا نفيت عنه « علامة » انتفى عنه الباقى ؟ لا ، إذن فنفى الأكثر لا ينفى الأقل .

لكن إذا أثبت الأكثر ثبت الأقل ، وإذا نفيت الأكثر فلن ينتفى الأقل ، فإذا قلت : الله ليس بظلام للعبيد ، نفيت الأكثر . صحيح أنهّ غير مبالغ فى الظلم ، فهل يمكن أن يكون ظالماً ؟ على حسب ما قلنا : إذا نفينا الأكثر لا ينتفى الأقل نقول : لا ، لأننا هنا يجب أن نأخذ القضية الأولى فى أن المبالغة فى الحدث والمبالغة فى الفعل تأتى مرة فى ذات الحدث ، ومرة فى تكرار الحدث ، والحق سبحانه لو أراد أن يظلم هذا ويظلم هذا ، فقد تكرر الحدث ؛ فيكون معاذ الله ـ ظلاّماً ، ولذلك لم يقل : بظلاّم للعبد ، بل قال : بظلاّم للعبيد .

إذن فهذا العبد يحتاج ظالماً ، والعبد الآخر يحتاج ظالماً ، وذاك يحتاج ظالماً ! فعندما يظلم كل هؤلاء يكون ظلاماً ، ولذلك نفاها سبحانه وقال : « وما ربك بظلام للعبيد » .

والحق هنا يقول : « قيوم » وهذه صفة مبالغة من قائم ، فالأصل فيها : القائم على أمر بيته ، والقائم على أمر رعيته ، والقائم على أمر المدرسة ، والقائم على أمر

هذه الإدارة ، ومعنى قائم على أمرها : أنه متولى شئونها ، فكأن القيام هو مظهر الإشراف . فنحن لا نقول : « قاعد على إدارتها » . وعندما نقول « قيوم » فمعناها أنه أوسع فى القيام . كيف جاء هذا الاتساع ؟ . لأن القائم قد يكون قائماً بغيره ، لكن حين يكون قائما بذاته ، وغيره يستمد قيامه منه ، فهو قائم على كل نفس وهو سبحانه القائل :

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الرعد)

إن المشركين قد بلغوا السفه فى جحودهم فجعلوا لله شركاء فى العبادة ، فهل يستطيع أحد أن يبلغ تلك المرتبة العالية ، مرتبة خلق العالم والقيام على كل أمر فيه ، صغر أو كبر ؟ . إنه الحافظ المراقب لكل نفس ، العالم بكل ما خفى وظهر ، وهذه الأوثان لا تضر ولا تنفع ، فكيف تتوهمون يا من أشركتم بالله له نداً ، إن الحق منزه عن ذلك بقيامه على كل نفس وكل الخلق . لكن أهل الضلال أغواهم ضلالهم فلم يعد لهم هاد بعد الله .

إن الحق سبحانه قائم بذاته ، وقائم على غيره . والغير إن كان قائما إنما يستمد منه القيام . فلابد أن يكون « قيوماً » ، ومن قيومته أنه « لا تأخذه سنة ولا نوم » ، وقيل فى كتب العلم : إن قوم بنى إسرائيل سألوا موسى عليه السلام : أينام ربنا ؟ .

فأوحى الله إليه : أن ائت بزجاجتين وضعهما فى يد إنسان ، ودعه إلى أن ينام ، ثم انظر الجواب . فلما وضع فى يده الزجاجتين ونام . انكسرت الزجاجتان فقال : هو كذلك ، هو قائم على أمر السماء والأرض ، ولو كانت تأخذه سنة أو نوم لتحطمت الدنيا .

وهو سبحانه « لا تأخذه سنة ولا نوم » . و« السنة » هى أول ما يأتى من

النعاس ؛ أى النوم الخفيف. فالواحد منا يكون جالساً ثم يغفو. لكن النوم هو « السُبات العميق » ، فلما قال : « لا تأخذه سنة » قالوا : إنه يتغلب على النوم الخفيف لكن ؛ هل يقدر على مقاومة النوم العميق ؟. فقال الحق عن نفسه : « لا تأخذه سنة ولا نوم » . وعرفنا أن السنة هى : النعاس الذى يأتى فى أول النوم ، ومظهرها يبدو أولاً فى العين وفى الجفن ، فعندما يذهب إنسان فى النوم ؛ فإن أثر ذلك يظهر فى عينيه ، ولذلك يقولون : إن العين هى الجارحة التى يمكن أن تعرف بها أحوال الإنسان ، وقد اكتشفوا فى عصرنا الحديث أن الشرايين لا يمكن أن يعرفوا حالتها بالضبط إلا من العين . فالفتور الذى يأتى فى العين أولاً هو السنة أو مقدمات النوم ونسميه : النعاس .

«لا تأخذه سنة ولا نوم » أتريدون تطميناً من إله لمألوه ، ومن معبود لعابد ، ومن خالق لمخلوق أكثر من أنه يقول للعابد المخلوق : « نم أنت ملء جفونك ، واسترح ؛ لأن ربك لا ينام » . ماذا تريد أكثر من هذا ؟ هو سبحانه يعلم أنه خلقك ، وأنك تحتاج إلى النوم ، وأثناء نومك فهناك أجهزة فى جسمك تعمل . أإذا نمت وقف قلبك ؟ أإذا نمت انقطع نَفَسك ؟ أإذا نمت وقفت معدتك من حركتها الدودية التى تهضم ؟ أإذا نمت توقفت أمعاؤك عن امتصاص المادة الغذائية ؟ لا ، بل كل شىء فى دولابك يقوم بعمله . فمن الذى يُشرف على هذه العمليات لو كان ربك نائماً ؟

إذن فأنت تنام وهو لا ينام . وبالله هل هذه عبودية تُذلّنا أو تُعزنا ؟ إنها عبودية تُعزنا ؛ فالذى نعبده يقول : ناموا أنتم ؛ لأننى لا تأخذنى سنة ولا نوم . وإياك أن تفهم أنه لا تأخذه سنة ولا نوم ، وأن شيئاً فى كونه يخرج عن مراده ، لا ؛ لأن كل ما فى السموات والأرض له ، فلا شىء ولا أحد يخرج عن قدرته . ولذلك يقول الحق : « له ما فى السموات وما فى الأرض » .

ويتابع سبحانه بقوله : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » إنّه سبحانه وتعالى يوضح : أنا أعطيتك الراحة فى الدنيا ، وحتى الكافر جعلته يتنعم بنعمى ، ولم أجعل الأسباب تضن عليه ، وأعطيته مادام قد اجتهد فى تلك الأسباب مما يدل على أننى ليس عندى محاباة ، قلت للأسباب : يا أسباب من يُحسنك يأخذك ولو كان

كافرا بى . لكنه سيأتى يوم القيامة وليس للكافر إلا العذاب ، لأنه مادام قد عمل فى الدنيا وأحسن عملا فقد أخذ جزاءه ، فإياكم أن تظنوا كما قالوا : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله »، وجاء فيهم قول الحق :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

إن هؤلاء الذين افتروا على الله بالشرك به ، واتخذوا أصناما باطلة لا تضرهم ولا تنفعهم . يقولون عن هذه الأصنام : إنها تشفع لهم عند الله فى الآخرة ، ويأمر الحق سبحانه رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يبلغ المشركين : قل لهم يا محمد : هل تخبرون الله بشريك لا يعلم الله له وجودا فى السموات ولا فى الأرض ، وهو الخالق لكل ما فى السموات والأرض ومُنزه سبحانه عن أن يكون له شريك فى المُلك .

لقد أرادوا أن يخلوا بقضية التوحيد ويجعلوا لله شركاء ويقولوا : إن هؤلاء الشركاء هم الذين سيشفعون لنا عند الله . فيقول الحق سبحانه : إن الشفاعة لا يمكن أن تكون عندى إلا لمن أذنت له أن يشفع . إن الشفاعة ليست حقا لأحد . ولكنها عطاء من الله ، لذلك يقول : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » .

ويقول الحق : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم » . ساعة يتعرض العلماء إلى : « مابين أيديهم وما خلفهم » يشرحون لنا أن ما بين اليدين أى ما أمامك ، وما خلفك أى ما وراءك ، وما بين يدى الإنسان يكون : مواجها لآلة الإدراك الرائدة وهى العين ، فهو أمر يُشهد .

والذى فى الخلف يكون غيبا لا يراه ، كأن ما بين اليد يراد به المشهود والذى فى الخلف يراد به الغيب ، فهو « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم » أى يعلم مشهدهم

وغيبهم ، ويطلق « ما بين اليد » إطلاقا آخر . إننا قد نسأل عمّا بين يديك . هل هو مواجه لك أو غير مواجه ؟ فلو كان أمامك بشر ، فهل هم قادمون إليك أو راحلون عنك ؟

إنهم إن كانوا راحلين عنك فقد سبقوك وقد جئت أنت من بعدهم ، ومن وراءك سيأتى من بعدك . أى أن الحق سبحانه يخبرنا أنه يعلم الماضى والمستقبل . فمرة يعلم الحق ما بين أيديهم ، أى العالم المشهود ويسمونه « عالم الملك » ، وما خلفهم أى الغيب ، ويسمونه « عالم الملكوت » . إنه يعلم المشهود لهم والخفى عنهم . وكما يقول الحق :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إن عند الله علم جميع الغيب ويحيط علمه بكل شىء ، ولا تخفى عليه خافية . إنها إحاطة من كل ناحية . « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء » . إنه الحق يعلم مطلق العلم . وكون الحق يعلم فإن ذلك لا ينفى أن يكون غيره يعلم أيضا ، لكن علم البشر هو بعض علم موهوب من الخالق لعباده .

فعندما يقول واحد : أنا أقول الشعر . فهل منع ذلك القول أحداً آخر من أن يقول الشعر ؟ لا . إنه لم يقل : ما يقول الشعر إلا أنا .

ويقول سبحانه : « ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء » ، و« العلم » هو الصفة التى تعلم الأشياء على وفق ما هى عليه ، هذا هو العلم . وصفة الله وعلمه أعظم من أن يحاط بها ، لأنها لو أحيطت لحددت ، وكمالات الله لا تحدد ، مثلما ترى شيئا يعجبك فتقول : هذه قدرة الله ، هل هى قدرة الله أو مقدور الله ؟ إنها مقدور الله أى أثر القدرة ، فعندما يقول : « ولا يحيطون بشىء من علمه » أى من معلومه .

« ويحيطون » هى دقة فى الأداء ، لأنك قد تدرك معلوما من جهة وتجهله من جهات ، فأوضح سبحانه : أنك لا تقدر أن تحيط بعلم الله أو قدرته ؛ لأن معنى الإحاطة أنك تعرف كل شيء ، مثل المحيط على الدائرة ، لكن ذلك لا يمنع أن نعلم جزئية ما ، ونحن نعلم بما آتانا الله من قوانين الاستنباط ، فهناك مقدمات نستنبط منها نتائج ، مثل الطالب الذى يحل مسألة جبر ، أو تمرين هندسة ، أيعلم هذا الطالب غيبا ؟ لا ، ولكنه يأخذ مقدمات موضوعة له ويصل إلى نتائج معروفة سلفا لأستاذه . وأنت لا تحيط بعلم إلا بما شاء لك الله أن تحيط ، « لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » .

وقول الله : « إلا بما شاء » هو إذن منه سبحانه بأنه سيتفضل على خلقه بأن يشاء لهم أن يعلموا شيئا من معلومه ، وكان هذا المعلوم خفيا عنهم ومستورا فى أسرار الكون ، ثم يأذن الله للسر أن ينكشف ، وكل شيء اكتشفه العقل البشرى ، كان مطمورا فى علم الغيب وكان سرا من أسرار الله ، وبعد ذلك أذن الله للسر أن ينكشف فعرفناه ، بمشيئته سبحانه . فكل سر فى الكون له ميلاد كالإنسان تماما ، أى أن له ميعادا يظهر فيه ، وهذا الميعاد يسمى مولد السر . لقد كان هذا السر موجودا وكان العالم يستفيد منه وإن لم يعلمه . لقد كنا نحن نستفيد ـ على سبيل المثال ـ من قانون الجاذبية ولم نكن نعلم قانون الجاذبية ، وكذلك الشسبية كنا نستفيد منها ولم نكن نعلمها ، وهذا ما يبينه لنا الحق فى موضع آخر من القرآن الكريم ، قال تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة فصلت)

مادام قال سبحانه : « سنريهم » ، فهذا يعنى أنه سبحانه سيولد لنا أسراراً جديدة ، وهذا الميلاد ليس إيجادًا وإنما هو إظهار ، ولذلك يقول الناس عن الأسرار العلمية:إنها اكتشافات جديدة ، لقد تأدبوا فى القول مع أن كثيرا منهم غير متدينين ، قالوا : اكتشفنا كذا ، كأن ما اكتشفوه كان موجودا وهم لا يقصدون هذا الأدب . إنما هى جاءت كذلك ، أما المؤمنون فيقولون : لقد أذن الله لذلك السر أن يولد .

وقوله : « لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » فيه تحد واضح . فحتى إذا اجتمع البشر مع بعضهم البعض فلن يحيطوا بشيء إلا بإذنه . وهذا تحدٍ للكل ، حين يشاء سبحانه أن يوجد إظهار سر فى الوجود ، فهذا السر يولد ، وقد يكون إظهار السر موافقا لبحث الناس مثل العالم الذى يجلس فى معمله ليجرب فى العناصر والتفاعلات ، ويهتدى لهذه وهذه ، إنه يتعب كثيرا كى يعرف بعضا من الأسرار ، ونحن لا ندرى بتعبه وجهده إلا يوم أن يكتشف سره .

لقد أخذ المقدمات التى وضعها الله فى الكون حتى إذا تتبعناها نصل إلى سره ، مثلما نريد أن نصل إلى الولد فنتزوج حتى يأتى ، وقد يأذن الله مرارا كثيرة أن يولد السر بدون أن يشتغل الخلق بمقدماته ، لكن ميعاد ميلاد السر قد جاء ولم ينشغل العلماء بمقدماته ؛ فيخرجه الله لأى مخترع كنتيجة لخطأ فى تجربة ما .

وعندما نبحث فى تاريخ معظم الاكتشافات نجدها كذلك ، لقد جاءت مصادفة ، فهناك عالم يبحث فى مجال ما ، فتخرج له حقيقة أخرى كانت مخفية عنا جميعا . لقد جاء ميعاد ميلادها على غير بحث من الخلق ، فجاء الله بها فى طريق آخر لغيرها ، وفى بعض الأحيان يوفق الله عالما يبحث المقدمات ويكشف له السر الذى يبحث عنه .

إذنْ ، فـ « لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » تعنى أن الإنسان قد يصادف السر بالبحث ، ومرة يأتى سر آخر فى مجال البحث عن غيره ، فالله لا يضن بكشف السر حتى لو لم يشتغلوا به ونسميها نحن ـ مصادفة ـ إنّ كل شيء يجرى فى الكون إنما يجرى بمقدار ، وهذا هو الذى يفرق لنا بين معرفة غيب كان موجودا وله مقدمات فى كون الله نستطيع أن نصل إليه بها ، وشيء مستور عند الله ليست له مقدمات ؛ إن شاء سبحانه أعطاه من عنده تفضلا ؛ من باب فضل الجود لا بذل المجهود وهو سبحانه يفيضه فى « المصادفة » هنا ويفيضه فيما لا مقدمات له على بعض أصفيائه من خلقه ، ليعلم الناس جميعا أن لله فيوضات على بعض عبيده الذين والاهُمُ الله بمحبته وإشراقاته وتجليه .

لكن هل هذا يعنى أن باستطاعتنا أن نعرف كل الغيب ؟ لا ، فالغيب قسمان :

غيب جعل الله له فى كونه مقدمات ، إن استعملناها نصل إليه ، ككثير من الاكتشافات ، وإذا شاء الله أن يولد سر ما ولم نبحث عنه فهو يعطيه لنا « مصادفة » من باب فيض الجود لا بذل المجهود . ونوع آخر من الغيب ليست له مقدمات ، وهذا ما استأثر الله بعلمه إلا أنه قد يفيض به على بعض خلقه كما يقول سبحانه :

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الجن)

إن الله هو عالم الغيب فلا يُطلع أحدا من خلقه على غيبه إلا من ارتضاه واصطفاه من البشر ، لذلك فلا أحد يستطيع أن يتعلم هذا اللون من الغيب . ولذلك فلا يوجد من يفتح دكانا لعلم الغيب يذهب إليه الإنسان ليسأله عن الغيب . إن الحق يقول :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وهو سبحانه لا يعطى المفتاح لأحد من خلقه . وقد يريد الله أن يعطى لواحد كرامة ، فأعطاه كلمة على لسانه قد يكون هو غير مدركٍ لها ! فيقول : من يسمع هذا القول وينتفع به . فلان قال لى : كذا وكذا . . يا سلام ! وهذا فيض من الله على عبده حتى يبين الله لنا أنه يوالى هؤلاء العباد الصالحين .

وقوله الحق : « ولا يحيطون بشىء » نجد أن كلمة « شىء » تعنى أقل القليل . وقوله سبحانه : « من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض » يعلمنا أن الحق فيما يتكلم به عن نفسه ولخلقه فيه نظائر ، كالوجود ، هو سبحانه موجود وأنت موجود ، وكالغنى هو غنى وأنت غنى ، كالعلم هو عالم وأنت تكون عالماً ، فهل

نقول : إن الصفة لله كالصفة عندنا ؟ لا ، كذلك كل ما يرد بالنسبة للغيب فيما يتعلق بالله إضافة أو وصفاً ؛ لا تأخذها بالمناسب عندك ؛ بل خذها فى إطار « ليس كمثله شيء » .

فإذا قيل لله يد ، قل : هو له يد كما أن له وجودا ؛ وبما أن وجوده ليس كوجودى فيده ليست كيدى بل افهمها فى إطار « ليس كمثله شيء » ، فإذا قال : « وسع كرسيه » نقول : هو قال هذا ، ومادام قال هذا فسنأخذ هذه الكلمة فى إطار « ليس كمثله شيء » . فلا تقل له كرسى وسيقعد عليه مثلنا ، لا . لقد وجدنا من قال : أين يوجد الله ؟!! متى وجد ؟!! وقلنا ونقول : « متى » و« أين » لا تأتى بالنسبة لله ، إنها تأتى بالنسبة لكم أنتم ، لماذا ؟ لأن « متى » زمان و« أين » مكان . والزمان والمكان ظرفان للحدث ، فالشيء الحادث هو الذى له زمان ومكان ، مثال ذلك أن أقول : « أنا شربت » ومادام قد حدث الشرب فيكون له زمان ومكان ، لكن هب أننى لم أشرب ، أيكون هناك زمان أو مكان ؟! لا ، فمادام الله ليس حدثاً فليس متعلقاً به زمان أو مكان ، لأن الزمان والمكان نشآ عندما خلق الله وأحدث هذا الكون ، فلا تقل : « متى » لأن « متى » خُلِقت به ، ولا تقل « أين » لأن أين خُلِقت به ولأن « متى » و« أين » ظرفان ؛ هذه للزمان ، وهذه للمكان . والزمان والمكان فرعا الحدث . وعندما يوجد حدث فقل زمان ومكان .

إذن فمادام الله ليس حدثاً ، فإياك أن تقول فيه متى ، وإياك أن تقول فيه أين ، لأن « متى » و« أين » وليدة الحدث . وقوله الحق : « وسع كرسيه » نأخذه ـ كما قلنا ـ فى إطار « ليس كمثله شيء » ، الكرسى : فى اللغة من الكِرْس . والكِرْسُ هو : التجميع ، ومنه الكراسة وهى عدة أوارق مجمعة ، وكلمة « كرسى » استعملت فى اللغة بمعنى الأساس الذى يُبنى عليه الشيء ، فمادة « الكرسى » (الكاف والراء والسين) تدل على التجميع وتدل على الأساس الذى تثبت عليه الأشياء ؛ فنقول : اصنع لهذا الجدار كرسياً ، أى ضع لهذا الجدار أساساً يقوم عليه . وتطلق أيضاً على القوم العلماء الذين يقوم بهم الأمر فيما يشكل من الأحداث ، والشاعر العربى قال : « كراسى فى الأحداث حين تنوب » أى يُعتمد عليهم فى الأمور الجسيمة .

وحين يُنسب شيء من ذلك للحق سبحانه وتعالى . فإن السلف لهم فيها كلام

والخلف لهم فيها كلام ، والسلف يقولون : كما قال الله نأخذها ولكن نضع كيفيتها وتصورها فى إطار « ليس كمثله شيء » ، وبعضهم قال : نؤولها بما يُثبت لها صفة من الصفات ، كما يثبتون قدرة الحق بقوله الحكيم .

﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الفتح)

أى أن قدرة الله فوق قدرتهم ، وكما قال سبحانه عن قدرته فى الخلق :

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

إن كمال قدرة الله أحكمت خلق السماء ، والحق سبحانه مقدس ومُنَزَّهٌ عن أن يتصور المخلوق كلمة « يد » بالنسبة لله . ونحن نقول : الله قال ذلك ، ونأخذها من الله ؛ لأنه أعلم بذاته وبنفسه ، ونحيلها إلى ألاّ يكون له شبيه أو نظير ، كما أثبتنا لله كثيراً من الصفات ، فى خلق الله مثلها ومع ذلك نقول : علمه لا كعلمنا ، وبصره لا كبصرنا ، فلماذا يكون كرسيه مثل كرسينا ؟. فتكون فى إطار « ليس كمثله شيء » .

والعلماء قالوا عن الكرسي : إنه ما يُعتمد عليه ، فهل المقصود علمه ؟. نعم . وهل المقصود سلطانه وقدرته ؟. نعم ، لأن كلمة « كرسى » توحى بالجلوس فوقه ، والإنسان لا يجلسُ عن قيام إلا إذا استتب له الأمر ، ولذلك يسمونه « كرسى المُلْكِ » ؛ لأن الأمر الذى يحتاج إلى قيام وحركة لا يجعلك تجلس على الكرسى ، فعندما تقعد على الكرسى ، فمعنى ذلك أن الأمر قد استتب ، إذن فهو بالنسبة لله السلطان ، والقهر ، والغلبة ، والقدرة .

أو نقول : مادام قال : « وسع كرسيه السموات والأرض » فوسع الشىء أى : دخل فى وسعه واحتماله . « والسموات والأرض » نحن نفهمها أنها كائنات كبيرة بالنسبة لنا ، إنه سبحانه يقول :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(سورة غافر)

وعندما يقول : إن الكرسى وسع السموات والأرض ، إذن ، فهو أعظم من السموات والأرض أى دخل فى وسعه السموات والأرض . ولذلك يقول أبو ذر الغفارى رضى الله عنه :

(سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن الكرسى فقال : يا أبا ذر ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة . وإن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقة)(١) .

والبشرية بكل ما وصلت له من إنجازات علمية قد وصلت إلى القمر فقط وهو مجرد ضاحية من ضواحى الأرض ، ومفصول عنا بمسافة تقاس بالثوانى الضوئية ، ولقد تعودنا فى حياتنا أن نستخدم وحدات الميل والكيلومتر لقياس الأطوال والأبعاد الكبيرة ، لكننا اكتشفنا أن هذه الوحدات ليست ذات نفع فى قياس أبعاد النجوم ؛ لأننا نعرف مثلاً أن الشمس تبعد عن الأرض ثلاثة وتسعين مليونا من الأميال ، ولكن عندما نريد أن نرصد المسافة بيننا وبين أحد النجوم فلسوف نضطر إلى استخدام أعداد كثيرة من الأصفار أمام رقم ما ، وهذا يجعل التعبير غير عملى ، ولهذا السبب وضع علماء الفلك وحدة ملائمة لقياس أبعاد النجوم وهى ما نسميه السنة الضوئية . ونحن نعرف أن سرعة الضوء حوالى ثلاثمائة ألف كيلومتر فى الثانية . ولذلك فقياس أى مسافة بيننا وبين أى نجم فى السماء أمر يحتاج إلى حسابات دقيقة وكثيرة ودراسة علوم متعددة .

فالشمس بيننا وبينها ثلاثة وتسعون مليونًا من الأميال ويصلنا ضوؤها فى خلال ثمانى دقائق وثلث الدقيقة . والشعرى اليمانية وهى ألمع نجوم السماء يصل إلينا ضوؤها فى تسع سنوات ضوئية .

---

(١) حديث شريف أخرجه ابن جرير وابو الشيخ فى العظمة .

إذن فالسنة الضوئية هي وحدة لقياس المسافات الفلكية . ونحن نذهل عندما نعرف أن بعض النجوم يصل ضوؤها إلينا في خمسين سنة ضوئية !! كل ذلك ونحن لم نصل بعد إلى السماء الدنيا ، فما بالنا ببقية السموات ؟ إذن فحدود ملك الله فوق تصورنا . ولنا أن نعرف أي تكريم من الحق للمؤمنين حين يصور لنا ضخامة الجنة يقول سبحانه :

﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الحديد)

هذه هي الجنة التي أعدها الله للمؤمنين بالله ورسله الذين يسارعون إلى طلب غفران الله . فإذا كان عرض الجنة هو السموات والأرض ، فما طولها إذن ؟ وكم يكون بعدها ؟ والعرض كما نعرف هو أقل البعدين .

إذن يجب أن نفهم أن هناك عوالم أخرى غير السماء والأرض ، لكن عيوننا لا تبصر فقط إلا ماأراده الحق لنا من السماء والأرض ، ولذلك عندما نسمع قول الحق : « وسع كرسيه السموات والأرض » فلنا أن نتخيل أي عظمة هي عظمة كرسي ذي الجلال والإكرام .

إن الحق يقول : « وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما » ، ومعنى آده الشيء ، أي أثقله . وحتى نفهم ذلك هب أن إنسانا يستطيع أن يحمل عشرة كيلوجرامات ، فإن زدنا هذا الحمل إلى عشرين من الكيلوجرامات فإن الحمل يثقل عليه ، ويجعل عموده الفقري معوجا حتى يستطيع أن يقاوم الثقل . فإن زدنا الحمل أكثر فقد يقع الرجل على الأرض من فرط زيادة الوزن الثقيل .

إذن فمعنى « ولا يؤوده حفظهما » أي أنه لا يثقل على الله حفظ السموات والأرض .

إن السماء والأرض وهما فوق اتساع رؤية البشر ؛ قد وسعهما الكرسى الربانى . وقال بعض المفسرين : إذا كان الكرسى لا يثقل عليه حفظ السموات والأرض فما بالنا بصاحب الكرسى !!؟

ها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يطمئننا فيقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة فاطر)

إنه الحق وحده سبحانه وتعالى الذى يحفظ السموات والأرض فى توازن عجيب ومذهل ، ولئن قُدّر لهما أن تزولا . فلن يحفظهما أحد بعد الله ، أى لا يستطيع أحد إمساكهما ؛ فهما قائمتان بقدرة الواحد القهار ، وإذا أراد الله أن تزولا فلا يستطيع أحدٌ أن يمسكهما ويمنعهما من الزوال .

وإذا كانت هذه الأشياء الضخمة من صنع الله وهو فوقها ، فإنه عندما يصف نفسه بأنه « علىّ » و« عظيم » فذلك أمر طبيعى . إن الحق سبحانه وتعالى يعطينا تذييلاً منطقياً يقتضيه ما تقدمت به الآية الجليلة : آية الكرسى ، إنه الحق يقول : « وهو العلىّ العظيم » وكلمة « علىّ » صيغة مبالغة فى العلو . و« العلىّ » هو الذى لا يوجد ما هو أعلى منه فكل شىء دونه .

هذه الآية الكريمة التى نحن بصددها نعرفها بآية الكرسى ؛ لأن كلمة « الكرسى » هى الظاهرة فيها . وكلمة « الكرسى » فيها : تعنى السلطان والقهر والقدرة والملكية وكلها مأخوذة من صفات الحق جل وعلا .

إنه لا إله إلا هو . إنه الحى . إنه القيوم . إنه الذى لا تأخذه سنة ولا نوم .

والشفاعة عنده مأذون فيها بإرادته هو وحده وليس بإرادة سواه . وهو العليم بكل

شيء ، الذى يسع كرسيه السموات والأرض وهو العليّ فلا أعلى منه ، وهو العظيم بمطلق العظمة . وتتجمع كل هذه الصفات لتضع أمامنا أصول التصور فى العقيدة الإيمانية ، وقد وردت فيها أحاديث كثيرة ، ومنها نستخلص أنها آية لها قدرها ومقدارها عند الله . فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

« وكلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتانى آت فجعل يحثو الطعام فأخذته وقلت:والله لأرفعنّك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : إنى محتاج ، وعلىّ عيال ، ولى حاجة شديدة . قال:فخليت عنه ، فأصبحت فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم ـ يا أبا هريرة : « ما فعل أسيرك البارحة » ؟ قال : قلت يا رسول الله : شكا حاجة شديدة وعيالا ، فرحمته ، فخليت سبيله ، قال : « أمّا إنه كذبك وسيعود » فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ إنه سيعود ، فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت : لأرفعنّك إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال:دعنى فإنى محتاج ، وعلىّ عيال لا أعود ، فرحمته وخليت سبيله ، فأصبحت فقال لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة:« ما فعل أسيرك »؟ فقلت يا رسول الله : شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته فخليت سبيله قال : « أما إنه قد كذبك وسيعود » فرصدته الثالثة ، فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنّك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهذا اخر ثلاث مرات أنك تزعم لا تعود ، قال : دعنى أعلمْك كلمات ينفعْك الله بها قلت : ما هى ؟

قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى « الله لا إله إلا هو الحىّ القيوم » حتى تختم الآية ؛ فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربنّك شيطان حتى تصبح ، فخليت سبيله ، فأصبحت فقال لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما فعل أسيرك البارحة » ؟ قلت يا رسول الله : زعم أنه يعلمنى كلمات ينفعنى الله بها فخليت سبيله قال : « ماهى » قلت : قال لى : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى من أولها حتى تختم « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » ، وقال لى : لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، وكانوا (أى الصحابة) أحرص شيء على تعلم الخير ، فقال النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم : « أمَا أنه قد

صدقك وهو كذوب ، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة ؟ قال : لا ، قال صلى الله عليه وسلم : « ذاك الشيطان »[١] .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سورة البقرة فيها آية سيدة آى القرآن لا تقرأ في بيت فيه شيطان إلا خرج منه ـ آية الكرسى »[٢] .

وعن أبي أمامه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ دُبُرَ كل صلاة آية الكرسى لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت »[٣] .

وعن علىّ ـ كرم الله وجهه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من قرأها ـ يعنى آية الكرسى ـ حين يأخذ مضجعه آمنه الله تعالى على داره ، ودار جاره ، وأهل دويرات حوله »[٤] .

كل هذه المعانى قد وردت فى أفضال هذه الآية الكريمة ، وقد جلس العلماء يبحثون عن سر هذه المسألة فقال واحد منهم : انظروا إلى أسماء الله الموجودة فيها .

وبالفعل قام أحد العلماء بحصر أسماء الله الحسنى فيها ، فوجد أن فيها ستة عشر اسماً من أسماء الله ، وبعضهم قال : إن بها سبعة عشر اسماً من أسماء الله الحسنى ، وبعضهم قال أن فيها واحدًا وعشرين اسماً من أسماء الله ، كل ذلك من أجل أن يستنبطوا منها أشياء ، ويعلموا فضل وفضائل هذه الآية الكريمة . والذين قالوا إن بها ستة عشر اسماً من أسماء الله قالوا :

إن بها اسم علم واجب الوجود « الله » .
واسم « هو » فى لا إله إلا هو:هو الاسم الثانى .

---

١ ـ من صحيح البخارى فى كتاب فضائل القرآن وكتاب الوكالة وفى صفة إبليس .
٢ ـ الحاكم أبو عبدالله فى مستدركه .
٣ ـ النسائى فى اليوم والليلة وابن حبان فى صحيحه .
٤ ـ البيهقى فى شعب الإيمان .

و« الحيّ » هو الاسم الثالث .

و« القيوم » هو الاسم الرابع .

وعندما ندقق فى قول الحق « لا تأخذه سنة ولا نوم » نجد أن الضمير فى « لا تأخذه » عائد إلى ذاته ـ جل شأنه ـ .

و« له ما فى السموات وما فى الأرض » فيها ضمير عائد إلى ذاته سبحانه .

وكذلك الضمائر فى قوله:« عنده » و« بإذنه » و« يعلم » و« من علمه » و« بما شاء » و« كرسيه » كلها تعود إلى ذاته جل شأنه .

و« لا يؤوده حفظهما » فيها ضمير عائد إلى ذاته كذلك .

و« هو » فى قوله سبحانه « وهو العلى العظيم » اسم من أسمائه تعالى .

و« العلىّ » اسم من أسمائه جل وعلا .

و« العظيم » كذلك اسم من أسمائه سبحانه وتعالى .

لكنّ عالماً آخر قال : إنها سبعة عشر اسماً من أسماء الله ؛ لأنك لم تحسب الضمير فى المصدر المشتق منه الفعل الموجود بقوله:« حفظهما » إن الضمير فى « هما » يعود إلى السموات والأرض . و« الحفظ » مصدر . فمن الذى يحفظ السموات والأرض ؟ إنه الله سبحانه وتعالى ، وهكذا أصبحوا سبعة عشر اسماً من أسماء الله الحسنى فى آية الكرسى .

وعالم ثالث قال : لا ، أنتم تجاهلتم أسماء أخرى ؛ لأن فى الآية الكريمة أسماء واضحة للحق جَل وعلا ، وهناك أسماء مشتقة ، مثال ذلك :

الله لا إله إلا هو . الحىّ هو . القيوم هو . العلىّ هو . العظيم هو .

ولكن العلماء قالوا ردا على ذلك : صحيح أنها أسماء مشتقة ولكنها صارت أعلاما .

المهم أن فى الآية الكريمة ستة عشر اسماً ، وإن حسبنا الضمير المستتر فى « حفظهما » نجد أنها سبعة عشر اسماً ، وإذا حسبنا الضمير الموجود فى المشتقات مثل « الحىّ هو » و« القيوم هو » ، و« العلىّ هو » و« العظيم هو » . صارت أسماء الله الحسنى الموجودة فى هذه الآية الكريمة واحدًا وعشرين اسماً . إذن هى آية قد جمعت قدراً كبيرا من أسماء الله ، ومن ذلك جاءت عظمتها .

وهذه الآية الكريمة قد بيّنت ووضحت قواعد التصور الإيمانى ، وأنشأت عقيدة متكاملة يعتز المؤمن أن تكون هذه العقيدة عقيدته . والآية فى ذاتها تتضمن حيثيات الإيمان ، إنه ما دام هو الله لا إله إلا هو ، وما دام هو الحىّ القيوم على أمر السماء والأرض ، وكل شىء بيده ، وهو العلىّ العظيم ، فكل هذه مبررات لأن نؤمن به سبحانه وتعالى ، وأن نعتز بأن نعتقد هذه المعتقدات ، وتكون هى الدليل على أن المؤمن فخور بهذا الدين الذى كان أمر الألوهية المطلقة واضحاً وبيّناً فيه .

ولذلك، فمن الطبيعى ألا يقهر الحق أحداً على الإيمان به إكراهاً ، لأن الذى يقهر أحداً على عقيدة ما ، هو أول مَنْ يعتقد أنه لولا الإكراه على هذه العقيدة لما اعتقدها أحد . ونحن فى حياتنا اليومية نجد أن أصحاب المبادىء الباطلة هم الذين يمسكون السياط من أجل إكراه الناس على السير على مبادئهم . وكل من أصحاب هذه المبادىء الباطلة يعلم تمام العلم أنه لو ترك السوط والقهر ما سار إنسان على مثل هذه المبادىء الباطلة .

ولو كان أحد من أصحاب هذه المبادىء الباطلة معتقداً أن مبدأه سليم لقال : أطرح هذا المبدأ على الناس ، وأترك لهم الخيار ؛ لأنه فى هذه الحالة سيكون واثقاً من مبدئه . أما الذى يقهر الناس إكراهاً بالسوط أو السلطان ليعتقدوا مبدأ ما ، فهو أول مَنْ يشك فى هذا المبدأ ، وهو أول مَنْ يعتقد أنه مبدأ باطل . مثل هؤلاء نراهم عندما تضعف أيديهم عن استعمال السوط أو السلطان، فإن أمر مبدئهم ينهزم ويسقط بنيانه .

والحق سبحانه وتعالى بعد ذلك يقول :

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ
مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ
ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾

إن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا نحن العباد المؤمنين ولسائر البشرية أنه : « لا إكراه فى الدين » . والإكراه هو أن تحمل الغير على فعل لا يرى هو خيراً فى أن يفعله . أى لا يرى الشخص المكرَه فيه خيراً حتى يفعله .

ولكن هناك أشياء قد نفعلها مع من حولنا لصالحهم ، كأن نرغم الأبناء على المذاكرة ، وهذا أمر لصالح الأبناء ، وكأن نجبر الأطفال المرضى على تناول الدواء . ومثل هذه الأمور ليست إكراهاً ، إنما هى أمور نقوم بها لصالح من حولنا ؛ لأن أحداً لا يسره أن يظل مريضاً .

إن الإكراه هو أن تحمل الغير على فعل من الأفعال لا يرى فيه هو الخير بمنطق العقل السليم . ولذلك يقول الحق سبحانه : « لا إكراه فى الدين » . ومعنى هذه الآية أن الله لم يُكره خلقه ـ وهو خالقهم ـ على دين ، وكان من الممكن أن الله يقهر الإنسان المختار ، كما قهر السموات والأرض والحيوان والنبات والجماد ، ولا أحد يستطيع أن يعصى أمره . فيقول سبحانه :

﴿ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٣١ سورة الرعد)

لكن الحق يريد أن يعلم من يأتيه محباً مختاراً وليس مقهوراً ، أن المجيء قهراً يثبت له القدرة ، ولا يثبت له المحبوبية ، لكن من يذهب له طواعية وهو قادر ألا يذهب فهذا دليل على الحب ، فيقول تعالى : « لا إكراه فى الدين » أى أنا لم أضع مبدأ الإكراه ، وأنا لو شئت لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً . فهل الرسل الذين أرسلهم سبحانه يتطوعون بإكراه الناس ؟ . لا ، إنّ الرسول جاء لينقل عن الله لا لِيُكره الناس ، وهو سبحانه قد جعل خلقه مختارين ، وإلا لو أكرههم لما أرسل الرسل ، ولذلك يقول المولى عز وجل :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾

(سورة يونس)

إن الرسول له مهمة البلاغ عن الله ؛ لأن الله لم يرد خلقه مكرهين على التدين ، إذن فالمبلغ عنه لا يُكره خلقه على التدين ، إلا أن هنا لبسًا . فهناك فرق بين القهر على الدين ، والقهر على مطلوب الدين ، هذا هو ما يحدث فيه الخلاف .

تقول لمسلم : لماذا لا تصلي ؟ يقول لك : « لا إكراه في الدين » ، ويدعى أنه مثقف ، ويأتيك بهذه الآية ليلجمك بها ، فتقول له : لا . « لا إكراه في الدين » عقيدة وإيماناً ، إنما إن آمنت وأعلنت أنك آمنت بالله وصرت معنا مسلماً فلا بد أن تعرف أنك إن كسرت حكماً من أحكام الإسلام نطلب منك أن تؤديه ، أنت حر أن تؤمن أو لا تؤمن ، لكن حين التزمت بالإيمان ، فعليك مسئولية تنفيذ مطلوب الإيمان ، وإلا حُسب تصرفك أنه من تصرفات الإسلام ، فإذا كنت تشرب خمراً فإنك حر ؛ لأنك كافر مثلا ، لكن أتؤمن ثم تشرب خمراً !؟ لا . أنت بذلك تكسر حداً من حدود الله ، وعليك العقاب .

ولأنك مادمت قد علمت كعاقل رشيد مطلوبَ الإسلام ، فعليك أن تنفذ مطلوب الإسلام ، ولذلك لم يكلف الله الإنسان قبل أن ينضج عقله بالبلوغ ؛ حتى لا يقال: إن الله قد أخذ أحداً بالإيمان وألزمه به قبل أن يكتمل عقله . بل ترك التكليف حتى ينضج الإنسان ويكتمل ، حتى إذا دخل إلى دائرة التكليف عرف مطلوباته ، وهو حر أن يدخل إلى الإيمان أو لا يدخل ، لكن إن دخل سيُحاسب .

إذن فلا يقل أحد عندما يسمع حكماً من أحكام الدين : « لا إكراه في الدين » ؛ لأن هذه الآية نزلت بشأن العقيدة الأساسية ، فإن اتبعت هذه العقيدة صار لزاماً عليك أن توفي بمطلوباتها . وقد أراد خصوم الإسلام أن يصعدوا هذه العملية فقالوا كذباً وافتراء : إن الإسلام انتشر بحد السيف .

ونقول لهم : لقد شاء الله أن ينشأ الإسلام ضعيفاً ويُضطهد السابقون إليه بكل أنواع الاضطهاد ، ويُعذبون ، ويُخرجون من ديارهم ومن أموالهم ومن أهلهم ، ولا يستطيعون عمل شيء . إذن ففترة الضعف التي مرت بالإسلام أولا فترة مقصودة .

ونقول لهم أيضا : من الذى قهر وأجبر أول حامل للسيف أن يحمل السيف ؟! والمسلمون ضعاف ومغلوبون على أمرهم ، لا يقدرون على أن يحموا أنفسهم ، إنكم تقعون فى المتناقضات عندما تقولون : إن الإسلام نُشِرَ بالسيف . ويتحدثون عن الجزية رفضاً لها ، فنقول : وما هى الجزية التى يأخذها الإسلام من غير المسلمين كضريبة للدفاع عنهم ؟ لقد كان المسلمون يأخذون الجزية من البلاد التى دخلها الفتح الإسلامى ، أى أن هناك أناسًا بقوا على دينهم . ومادام هناك أناس باقون على دينهم فهذا دليل على أن الإسلام لم يُكره أحداً .

وقول الله : « لا إكراه فى الدين » علته أن الرشد واضح والغىّ واضح ، ومادام الأمر واضحا فلا يأتى الإكراه . لأن الإكراه يأتى فى وقت اللبس ، وليس هناك لبس ، لذلك يقول الحق : « قد تبين الرشد من الغىّ » . ومادام الرشد بائنا من الغىّ فلا إكراه . لكن الله يعطيك الأدلة ، وأنت أيها الإنسان بعقلك يمكنك أن تختار ، كى تعرف أنك لو دخلت الدين لالتزمت ، وحوسبت على دخولك فى الدين ، فلا تدخل إلا وأنت مؤمن واثق بأن ذلك هو الحق ؛ لأنه سيترتب عليه أن تقبل أحكام الدين عليك .

« لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » والرشد : هو طريق النجاة ، و« الغى » : هو طريق الهلاك . ويقول الحق إيضاحاً للرشد والغى فى آية أخرى من آيات القرآن الكريم :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إن الحق يعلمنا أن المتكبرين فى الأرض بغير حق لن يستطيعوا الفوز برؤية آيات الله ودلائل قدرته ، وحتى إن رأوا السبيل الصحيح فلن يسيروا فيه ، وإن شاهدوا طريق الضلال سلكوا فيه لأنهم يكذبون بآيات الرحمن ويغفلون عنها .

والغى - أيضا - هو ضلال الطريق ، فعندما يسير إنسان فى الصحراء ويضل الطريق يقال عنه : « فلان قد غوى » أى فقد الاتجاه الصحيح فى السير ، وقد يتعرض لمخاطر جمة كلقاء الوحوش وغير ذلك . ويوضح لنا الحق طريق الرشد بمنطوق آخر فى قوله الحق :

﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الجن)

إن الجن قد ظنوا كما ظن بعض من معشر الإنس أن الله لن يبعث أحداً بعد الموت أو لن يرسل رسولاً من البشر لهداية الكون . وقد طلب الجن بلوغ السماء فوجدوها قد مُلئت حرساً من الملائكة وشُهباً محرقة . وإن الجن لا يعلمون السر فى حراسة السماء وهل فى ذلك شرٌّ بالبشر أو أراد الله بهم خيراً وهدى . إذن فالرُّشْد - بضم الراء وتسكين الشين - والرَّشَد بفتح الراء وفتح الشين - كلاهما يوضح الطريق الموصل للنجاة . ويقابل الرشد الغىّ .

ويتابع الحق : « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى » أولا : نلحظ أن الحق هنا قد قدم الكفران بالطاغوت ، ثم جاء بالإيمان بالله ؛ لأن الأمر يتطلب التخلية أولا والتحلية ثانيا ، لابد أن يتخلى الإنسان من الطاغوت ، فلا يدخل على أنه يؤمن بالله وفى قلبه الطاغوت ، فنحن قبل أن نكوى الثوب نغسله وننظفه ، التخلية قبل التحلية .

وما هو « الطاغوت » ؟ إنه من مادة « طغى » ، وكلمة « طاغوت » مبالغة فى الطغيان . لم يقل : طاغ ، بل طاغوت ، مثل جبروت ، والطاغوت إما أن يُطلق على الشيطان،وإما أن يُطلق على من يعطون أنفسهم حق التشريع فيكَفِّرون وينسبون من يشاءون إلى الإيمان حسب أهوائهم ، ويعطون أشياء بسلطة زمنية من عندهم ، ويُطلق أيضاً على السحرة والدجالين ، ويُطلق على كل من طغى وتجاوز الحد فى أى شىء ، فكلمة « طاغوت » مبالغة ، وقد تكون هذه المبالغة متعددة الألوان ، فمرة يكون الطاغى شيطانا ، ومرة يكون الطاغى كاهناً ، ومرة يكون ساحراً أو دجالاً ، ومرة يكون حاكماً .

ومادة « الطاغوت » تدل على أن الموصوف بها هو من تزيده الطاعة له طغيانا ، فعندما يجربك فى حاجة صغيرة ، فتطيعه فيها فيزداد بتلك الطاعة طغيانا عليك . والحق سبحانه يقول :

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

ويزيد فى الأمر حتى يصير طاغية ، ولا يوجد أحد استهل عمله بالطغيان العالى ، إنما يبدأ الأمر خطوة خطوة ، كأى نظام ديكتاتورى قهرى ، إنه يبدأ بـ (جس نبض) فإن صبر الناس ، ازداد هذا النظام فى القسوة حتى يصير طاغوتا ، إذن فالطاغوت هو الذى تستزيده الطاعة طغيانا ، وتُطلق على الشيطان ؛ لأنه هو الأساس ، وعلى الذين يتكلمون باسم الدين للسلطة الزمنية (سواء كانوا كهاناً أو غيرهم) ، وتُطلق على الذين يسحرون ويدجلون ، لأنهم طغوا بما علموه ؛ إنهم يستعملون أشياء يتعبون بها الناس ، وقد جاءت الكلمة هنا بصيغة المبالغة لاشتمالها على كل هذه المعانى ، وإذا استعرضنا الكلمة فى القرآن نجد أن « الطاغوت » ترد مذكرة فى بعض الأحيان ، وقد وردت مؤنثة فى آية واحدة فى القرآن :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الزمر)

لقد أوضحت هذه الآية أنهم تركوا كل أنواع الطغيان وأصنافه ، أى إن الذين اجتنبوا الألوان المتعددة من الطغيان هم الذين يتجهون بالعبادة الخالصة لله ، ولهم البشرى . «فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى » وكلمة « استمسك » غير كلمة « مَسَكَ » . لأن « استمسك » تدل على أن فيه مجاهدة فى المسك ، والذى يتدين يحتاج إلى مجاهدة فى التدين ؛ لأن الشيطان لن يتركه ، فلا يكفى أن تمسك ، بل عليك أن تستمسك ، كلما وسوس الشيطان لك بأمر فعليك أن تستمسك بالتدين ، هذا يدل على أن هناك مجاهدة وأخذًا وردًّا .

« فقد استمسك بالعروة » والعروة هى العلاّقة ، مثلما نقول : « عروة الدلو » ، التى تمسكها منه ، وهذه عادة ما تكون مصنوعة من الحبل الملفوف المتين ،

و« الوثقى » هى تأنيث (الأوثق) أى أمر موثوق به ، وقوله : « فقد استمسك بالعروة الوثقى » ، قد يكون تشبيهاً بعروة الدلو لأن الإنسان يستخدم الدلو ليأتى بالماء ، وبالماء حياة البدن ، وبالدين حياة القيم.

« فقد استمسك بالعروة الوثقى » كأنه ساعة جاء بكلمة « عروة » يأتى بالدلو فى بال الإنسان ، والدلو تأتى بالماء ، والماء به حياة البدن ، إذن فهذه تعطينا إيحاءات التصور واضحة ، « فقد استمسك بالعروة الوثقى » ، وما دامت « عروة وثقى » التى هى الدين والإيمان بالله ، وما دامت هى الدين وحبل الله فهذه وثقى ، وما دامت « وثقى » فلا انفصام لها ، وعلينا أن نعرف أن فيه انفصاماً . وفيه انقصام الأول بالفاء والثانى بالقاف .

الانفصام : يمنع الاتصال الداخلى ؛ مثلما تنكسر اليد لكنها تظل معلقة ، والانقصام : أن يذهب كل جزء بعيداً عن الآخر أى فيه بينونة ، والحق يقول : « لا انفصام لها والله سميع عليم » توحى بأن عملية الطاغوت ستكون دائماً وسوسة ، وهذه الوسوسة هى : الصوت الذى يُغرى بالكلام المعسول ، ولذلك أخذت كلمة «وسوسة الشيطان » من وسوسة الحُلِىّ ، ووسوسة الذهب هى رنين الذهب ، أى وسوسة مغرية مثل وسوسة الشيطان ، والله عليم بكل أمر . ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾

إن الله ولىّ الذين آمنوا ما دام « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك